التشكُّلات الأولى في فلسفة التاريخ

أ.د. حامد عبد الحمزة محمد علي(*)

مقدمة

لم تـزل الحاجة ضروريـة لفهم فلسفـة التاريخ مـع تطـور الوعـي بالتاريـخ الـذي جـاء مواكبـاً لتطـور العلـوم وأساليـب بحثها، فقـد أصبح علم التاريـخ أكثر قابليةً على الفهـم والتأمل والتحليل، وذلـك بتطـور وسائل البحـث والتقـصِّي، ولم يعد التاريـخ مجالاً وصفياً يقوم عـلى السَّرد والمبالغات، وهكذا كانت الحاجة متطـورة لفهم مفاتيح التأمل والتحليـل في الأحـداث التاريخية، وهـذا استدعى تسليـط الضـوء عـلى مفاتيـح التأمـل في التاريـخ، فكانـت فلسفة التاريخ، وبحثنا هـذا يُسلِّط الضوء على البدايات الأولى لفلسفة التاريخ من الناحيتين: المفاهيميـة والمعرفيـة، وعليه جاء البحـث بعنوان: (التشكُّـلات الأولى في فلسفـة التاريـخ)، وتكـون البحـث من ثلاثة مباحث، قامت على إيجاد مساحة معرفيـة لعنـوان البحـث. فكـان عنـوان المبحـث الأول: (تشكُّلات مفاهيمية في التاريخ وفلسفته)، وقـد تضمـن الخـوض في موضوعـاتٍ مفاهيميـة توضيحيـة في النشـأة الأولى لفلسفـة التاريـخ، أمَّا المبحـث الثاني فقـد جـاء بعنـوان: (في العلاقة بين الفلسفـة والتاريخ)، وقد تخصَّـص هذا المبحث في نوع العلاقـة بين المؤرِّخ والفيلسـوف، وفيه أصبح واضحـاً أنَّ التاريـخ الواقعـي يتـم قراءتـه بعـين الفلسفـة التـي تمنحه الرؤيـة العقلانيـة وتستخرج لنـا نصاً تاريخيـاً خالياً من المغالطـات والأكاذيب. أمَّـا المبحـث الثالث فقد حمل عنـوان: (التشكُّلات المعرفيـة في فلسفـة التاريـخ)، الذي سلَّـط الضوء على الجوانب المعرفية في فلسفة التاريخ، والتي تُعد اللبنة الأولى لتشكل فلسفة التاريخ.

الكلـمات المفتاحيـة: فلسفـة التاريـخ، الحَدَث التاريخي، التحليل التاريخي.

المبحث الأول

تشكُّلات مفاهيمية في التاريخ وفلسفتهِ

(١) مفهوم التاريخ

المقصود بالتاريخ هو الإعلام بالوقت بالإضافة إلى مـا وقع في ذلك الوقـت من أخبارٍ ووقائع، وإنَّ فـن التاريـخ عزيز المذهب جـم الفوائـد؛ إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملـوك في دولهم وسياستهم، حتَّى تتم فائـدة الاقتداء لِمَن يرومه في أحـوال الدين والدنيا،

(*) جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية.
hamedaiail30@gmail.com

فهـو ذو فوائـد متعددة ومعـارف متنوعـة وحُسن نظـر يُفضيـان بصاحبهـا إلى الحق ويبتعـدان بهِ عن المزلات.

لكـن متى بـدأ التاريخ، ومتى بـدأت العصور التاريخيـة، هـذا هـو السـؤال؟ باخـتراع الكتابة في بـلاد الرافديـن بـدأت العصـور الإنسانيـة عهـداً جديـد سُمـي بعـصر التاريـخ، التاريـخ أيضـاً هو دراسـة للتطور البـشري في جميع جوانبـهِ السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية والفكرية أياً كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته.

فالتاريـخ بأوسـع معانيـه هـو قصـة مـاضي الإنسـان، أو هو عارض منظَّم مكتوب للأحداث، وخاصـةً التي تؤثـر في أُمة أو نظـام أو عِلم أو فن، وهـو لا يسجـل الأحـداث باعتبارهـا خطوات في التقـدم البـشري فحسـب، بـل يسعـى إلى إيضاح أسبـاب هـذهِ الأحـداث ودلالاتهـا ويعرضها على نحوٍ يـدل على تشابكها في قصـةٍ واحدة، ويستعين بذلك بالآثار والروايات والمعاهدات والمذكَّرات.

وكلمـة التاريخ في الاصطلاح قـد استُخدمت للدلالة على معنيين، أولهـما المادة التاريخية، وثانيهما الطريقـة التـي يتم التعامـل فيها مع المـادة التاريخية وتنـوع مفهـوم التاريخ مـع اختلاف وتنـوع أهواء الشعـوب والثقافـات، وقـد عـرَّف ابـن خلـدون التاريـخ بأنـه يُظهر أخبـار الأمم السَّابقـة والدول والقـرون الأولى في ظاهرهِ، وفي باطنهِ يُظهر المبادئ والوقائـع وأسبابهـا. وأنَّ التاريـخ هـو استحضـار المؤرخ للماضي لذلك فهو انتقائي في معرفتهِ.

لقـد تعـدَّى التاريـخ مرحلـة سرد الأحـداث الماضيـة إلى مرحلـةٍ أخرى وهي مرحلـة التحليل، واستقـراء النتائـج، واستنبـاط الأدلـة والحقائـق، ويعـد الإنسـان هـو المحـور الرئيـس في دراسـة التاريخ، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتربية، فالتاريخ يعطـي أفكاراً ودروساً وأمثلـة للتربية. ودون شك هـو حياة الشعـوب، ومن ثمَّ فهو نبـض حي يُجدد حيـاة المجتمعات، وهـو تفاعل الإنسان مـع بيئتهِ، ممَّـا يتضمن ذلـك من عُصـارة فكرة ونتـاج تجاربه وتناغمـه مـع مـا حولـه مـن ظواهـر ومـا يتجـدَّد حوله مـن ظروف وملابسات، ومـع اكتمال العقل البشري، ونضوج الفكر الإنساني، بدأت النهضات الحقيقيـة التاريخية حين وعى الإنسـان وارتقى من مراحل جمع الطعـام والبحث عنه إلى مراحل إنتاج الطعام والاستقرار وإقامة القرى والمدن وصولاً إلى قيـام الدولة، ومن ثمَّ كان ظهور الحضارة البشرية. وعليـه فالتاريـخ سجـل ناطـق بالأحـداث التـي عاشها الإنسان منذ أن بدأ حياته على الأرض، وإذا كان التاريخ كلمـة فهو يعني البداية؛ لأنَّ بداية كل شيء عقلي، كانت الكلمة وبالكلمة المسجلة المدونة بدأ تاريخ الإنسان. وقد قال المؤرخ (صموئيل نوح كريمـر) إنَّ التاريخ بدأ في سومر واتفق معه المؤرخ آرنولد توينبي، إذ قال: المتخصص في تاريخ العراق القديم وبالـذات في التاريخ السومـري هو أحسن المتخصصـين في التاريخ، ذلك أنَّ بإمكانه أن يمدنا بمعلومـاتٍ عن بدايـة كل شيء في تاريخ الإنسان، وعـن الأصـول والأوائـل في كل فـن مـن الفنون، وهو بهذا يقدم إجابة مقنعة تُرضي الباحثين وتُجيب عـن سؤال الإنسان الدائم في بحثـهِ عن الأوائل في تاريخ الحضارة، ويمكننا تقسيم التاريخ إلى مراحل أو تقسيـمات نظرية تُسهل على الباحثين التخصص والدراسـة والتنظيـم للتاريـخ القديم الـذي شَمِل تاريخ ما قبل التاريخ والعصور التاريخية في الشرق حيث تضمَّن ذلـك التقسيم: تاريخ الشرق الأدنى القديـم وتاريخ الـشرق الأقصى القديـم، وتدخل

في هـذا تخصصـات كثـيرة منهـا تاريـخ المصريات والتاريخ السومري والآشوريات والبابليين فضلاً عن تاريخ الهند والصـين وتاريخ إيران القديم، أمَّا في الغـرب فتضمَّـن تاريخ اليونـان القديم وتاريخ الرومـان القديـم، بالإضافـة إلى دراسـة اللغـات القديمـة والآثـار القديمـة، ويـأتي ذلـك التاريـخ الوسيـط ويشمل المرحلـة المتوسطـة في التاريخ في أوروبـا والـشرق الأدنـى، ثـمَّ التاريـخ الإسلامي الـذي يتبعـه التاريـخ الحديـث والمعـاصر، وهـذهِ التقسيـمات عـلى كل حـال تقسيـمات نظريـة تقبل التعديـل والإضافـة بالرغـم مـن استقرارهـا بـين الباحثين والمشتغلين بالتاريخ.

وقد تعدَّدت النظريـات واختلفت وتباينت في تفسـير وفهم التاريخ كـما تنوعت مناهجهـا المتبعة في دراسـة هـذا التاريـخ، ورغم هـذهِ الاختلافات الكبيرة فـإنَّ من المتفق عليـه ضرورة اتباع مجموعة مـن القواعد العلمية الأساسيـة والتي بدونها تفقد الكتابـة التاريخيـة قيمتهـا الحقيقيـة، ويمكن إجمال هذهِ القواعد أساساً في التحري الدقيق للموضوعية والابتعـاد عـن الذاتيـة والأيدلوجيـة والالتـزام الصـارم بالأمانـة العلميـة في النقـل والتوثيـق من المصـادر التاريخيـة المعتمـدة، وإنَّ التاريـخ يتـم انطلاقـاً من الوثائق والمصـادر هذا أمر لاشك فيه، وهـو ضرورة ملحة بالنسبة للكتابـة التاريخية حتَّى لا يغـدو الأمـر وكأنه فقط مجرد قصـص خيالية أو روايات ترفيهية.

(والتاريـخ يمثـل مجمـوع الممكنـات التـي تحقَّقـت)، وهذهِ العبـارة لا تذكر فقـط بالممكنات التـي تحقَّقت والتـي لا عدَّ لهـا، وتتجـاوز كثيراً ما استطـاع خيالنا أن يخترعه لنفسـهِ، ومن الضروري أن نضيـف اختبـار الإنسانيـة فمعرفتنـا تبقـى أبداً ضعيفـة وعلينـا أن نفتح لهـا حقلاً مـن الاكتشاف لا حـدود لـه، ويجب عـلى المـؤرخ الذهـاب إلى ما هـو أبعد مـن المظاهر البسيطة فيُـدرك أنَّ في العمل الإنسـاني ما هـو أكثر قيمة من العمـل ذاته، ويفهم أنَّ العمـل بحـد ذاتـه ملئ مـن الفائدة التـي يجنيها الفكر من جراء الحوادث، كما أنه بمظهره التأكيدي للمزاعـم التـي يستوحي منهـا مفهوماً لعـالم كامل يُعـرب عنـه بكلمةٍ واحـدة وإشارة منبهـة وعندما يلقي هـذا العمل في تحليله الأخـير يصبح الإشارة المنبهة للأفكار والموحية للحضارة في كل مظاهرها ومعانيها.

(٢) هوية التاريخ

اختلف علـماء الأدب والتاريخ مع نهاية القرن التاسع عـشر وبداية القرن العشرين في تحديد هوية التاريخ، وقد ظهرت اتجاهات مختلفة، هي كما يأتي:

– هنـاك رأي يقـول لا يمكن وصـف التاريخ بالعلـم، وذلـك لأنـه لا يمكن إخضـاع الأحداث التاريخية إلى التحقيق والتدقيق والفحص، بخلاف العلـوم الأخـرى التي تقـوم على أسـاس الفحص والمشاهـدة كعلـم الكيمياء مثـلاً، ويذكر أصحاب هـذا الرأي أنَّ التاريخ في بعض الأحيان يعتمد على عنـصر المصادفة بالإضافة إلى عنـصر حرية الإرادة الشخصيـة الإنسانيـة، وهـذا مـا يهـدم أي أساس علمي من الممكن أن يقوم عليه التاريخ.

– هـذا الرأي عد التاريخ فـن من الفنون سواءً أكـان علـماً أم لا، فكتابـة التاريـخ تحتـاج إلى براعة الكاتب الذي يُظهر الأسباب والظروف التي أدت إلى نشوء الأحداث التاريخية.

– ذكر بعض العلماء أنه لا يمكن تجريد التاريخ

من صفة العِلم، فالتاريخ علمٌ قائم على النقد والتحليل وليس على التجربة، وهو بذلك يشبه العلوم الطبيعية.

(٣) التاريخ لغةً واصطلاحاً

اختلف اللغويون في أصل كلمة التاريخ، هل هي عربية أم معرَّبة، فمنهم مَن قال إنها عربية كالأصمعي، والبعض قالوا إنها فارسية مأخوذة من ماء روز، أو أنها سريانية معناها الشهر، وقد اكتفوا بالقول إنها مأخوذة من لفظة (تويرخ) وهي تعني تعريف الوقت، ومع أنَّ لفظ التاريخ لم يرد بالقرآن الكريم إلَّا أنَّ مصطلحات وردت تُشير إلى معنى التاريخ، ومنها: (أساطير، وقصص، والقرون الأولى، والصحف الأولى)، وهي نفس المعنى الذي تعنيه كلمة التاريخ في اللغات الأخرى في بداياته الأولى والتي كانت على شكل قصة تحمل أخبار الأجداد ومآثرهم. وعُرف مصطلح التاريخ بتعاريف مختلفة لكن تجتمع الآراء على أنَّ التاريخ هو قصة الإنسان ونشاطه السالف بكل أبعادِهِ، وهو يعني فلسفة الطبيعية والعلم والمجتمع وخاصة علاقة الأفراد فيما بينهم.

(٤) التاريخ كعِلم وصفي

من المعروف أنَّ العلوم الوصفية تختلف عن العلوم العامة اختلافاً واضحاً، فالعلوم العامة مثل الميكانيكا والكيمياء والأحياء وغيرها تعمل لاكتشاف القوانين المفسِّرة للظواهر التي من نوع واحد ممثلة الأحوال الواقعية الزمانية والمكانية؛ لأنَّ هدفها ليس تقرير الواقع بل التنبؤ بما سيكون في أحوالٍ معلومة، والعلوم الوصفية تسعى لمعرفة وقائع جزئية فتبحث كيف تتوزع إمَّا في المكان وحده (مثل: علم الجغرافية، علم المعادن، علم النبات، علم الحيوان)، أو في المكان وتوالي الأزمنة معاً (كعِلم الجيولوجيا)، لكن في الحقيقة أنَّ علم التاريخ له وضع خاص بين تلك العلوم، فلذا نجد أنَّ التاريخ يجب أن يُدرس في آن واحد نوعين من الوقائع المختلفة كل الاختلاف:

– وقائع مادية تُعرف بالحواس تتمثل بأحوال الناس المادية وأفعالهم.

– وقائع من طبيعة نفسية تتمثل بالعواطف والأفكار والدوافع التي لا يُدركها إلَّا الشعور ولا سبيل لدى المؤرخ لأن يبتعد عنها أو يصرف عنها النظر؛ لأنها توحي لسلوك الناس وتقتاد أفعالهم الحقيقة. ولما كانت وقائع موضوع علم التاريخ تتعلَّق بالأمور الماضية فإنها لا يمكن أن تلاحظ بطريقةٍ مباشرة وإنما تعرف بطريقة غير مباشرة ولكن بدراسة الآثار التي حفظت لنا منها كما في الجيولوجيا.

والوقائع موضوع التاريخ على نوعين: الموضوعات المادية التي كانت على صلة بالناس، والوثائق الشفوية أو المكتوبة التي مرَّت من خلال الوسيط اللغوي، مضافاً إليها ما تبقى من الأعراف الجارية فيه مثل الحقل المكشوف، أو الطقوس فيما يتعلَّق بالظواهر التاريخية كمية ضئيلة؛ لأنَّ الحاضر سرعان ما يتحول إلى ماضٍ، وإذا أردنا أن نُعبر بلغة أكثر وضوحاً للقارئ العام فإنه ينبغي التمييز بين وجهات النظر المختلفة لهذهِ الكلمة (التاريخ)، إذ ينبغي التمييز أولاً بين التاريخ كأحداثٍ وقعت في الماضي أو تقع في الحاضر، أو يتوقع حدوثها بالمستقبل، وبين التاريخ كعلم يُقصد منه حفظ هذهِ الأحداث وتسجيلها عِبرَ الوثائق الأصلية والشواهد الأثرية والأدلة المختلفة التي تؤكد حدوثها على نحو ما حدث.

(٥) أهمية دراسة التاريخ

تكمن أهمية دراسة التاريخ في اعتبارها جزءاً لا يتجزأ أو عنصر من أهم العناصر التي يقوم عليها تطور المُجتمع أو انحطاطه، كما أنَّ للتاريخ صلة وثيقة بكل العلوم الاجتماعية، فدراسة المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لمُجتمع ما هي إلَّا دراسة للتاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لذلك المُجتمع. وقد أدرك العرب أهمية علم التاريخ فخصُّوه بجانبٍ كبير من اهتمامهم ليلهم إلى معرفة مصائر الأمم الماضية وحوادث الزمان السابقة، وإنَّ الشاهد الوحيد على كلِّ الأحداث الماضية والحاضر وتوقعات المستقبل هو التاريخ، لذلك فإنَّ دراسة التاريخ تُعد من أهم العناصر التي يستند عليها أي مجتمع، حيث لا ننكر أهمية التاريخ حيث منه يمكن الاستفادة ونتجنب الأخطاء ونجد الحلول التي قد تكون إيجابية لمجتمع وسلبية لمجتمع آخر، وممَّا لا شك فيه أنَّ مَن لا يقدر على معرفته لا يستطيع تحديد أهميته؛ لذلك لا بدَّ من ذكر أهمية دراسة التاريخ والأسباب التي حملت العرب المسلمين على تدوين تاريخهم، وهي:

– رغبة العرب المسلمين في معرفة ماضيهم وحفظهم إياه وهو سبب منتشر بين الأمم المختلفة.

– تأثير شخصية الرسول الكريم (ﷺ) واهتمام المسلمين بأخباره وأحاديثه التي كانوا يستندون عليها في تنظيم حياتهم الخاصة الدينية منها والمدنية.

– الرغبة في تحقيق الأنساب، حيث اهتم العرب بأنسابهم اهتمام كبير منذ أقدم العصور، فكانوا يحفظونها ويتناقلونها ويتفاخرون بها، وكذلك استمرت هذهِ الرغبة إلى ما بعد الإسلام وأُضيفت إلى مفاخر العرب في الجاهلية مفاخر جديدة إسلامية ممَّن كان لهم سبق الجهاد وفضل الشهادة في أيام الإسلام الأول والقرابة للرسول الكريم.

– رغبة الخلفاء الراشدين في سماع أخبار الأمم الماضية وهذا طبيعي؛ لأنَّ الخلفاء كانوا حديثي العهد بالسياسة والحكم، فرغبوا في معرفة أخبار الأمم العريقة في الملك والحكم، وليقتبسوا منها ما كان يناسبهم.

– النزاع السياسي بين الأحزاب والفِرق الإسلامية المختلفة، ولاسيَّما العرب والعجم بعد أن قامت حركة الشعوبية.

– الرغبة في كسب عطف أمير أو ملك أو وزير بغية الحظوة عنده والربح المادي منه، كابن الطقطقي الذي قدَّم كتابه الفخري في الأدب العربي القديم، هي بالفعل مليئة بأخبار العرب وحوادثهم وسير رجالهم.

– الرغبة في فهم الأدب العربي القديم، فجمعوا أشعارهم وحكمهم وأمثالهم فاضطروا إلى تفسيرها لفهمها، وإنَّ هذا التفسير يجرهم إلى جلاء الحوادث التاريخية إذ أنَّ كتب الأدب العربي القديم هي بالفعل مليئة بأخبار العرب وحوادثهم وسير رجالهم.

– تطور الحياة الجديدة، لقد كانت معاملاتهم وتنظيمهم يضطرهم إلى معرفة طريق افتتاح البلاد. فالتاريخ من هذا المنطلق مثل دورة القمر هلال

ثـمَّ بدر تـام ثمَّ يتـوارى في الأفـق شيئاً فشيـاً حتَّى الخسـوف الكامل ثـمَّ يظهر الهـلال الجديد، ويرى هـذا الاتجاه أنَّ كل شي يختفي من الوجود يعود مرةً أخرى من جديد.

(٦) تنظيم الحقائق التاريخية بموجب محتوياتها

- الأحوال المادية:

(أ) درس الجسـد: وتشمـل النظـر في أجنـاس البشر وعلم التشريح، وكذلك النظر في التكاثر وما يقع تحته مـن دروس في الزواج والتوالد والوفيات وما إلى ذلك.

(ب) درس المحيـط: ويشمـل المحيط الطبيعي والنظـر في شـكل الإقليـم ومناخه ومياهـه وتربته ونباتـه وحيوانه، وكذلك المحيـط المصطنع والنظر في الفلاحة والتشجير وإنشاء الطرق وغير ذلك.

- العـادات العقليـة: وتشمل اللغـة وما يتفرع منها والفنون اليدوية وغيرها.

(ج) العلوم.

(د) الفلسفة والأخلاق.

(ذ) الدين.

- العـادات التـي تتعلَّق بالمـادة: وتشمل الحياة الماديـة والطعـام واللبـاس والمنزل وكذلـك الحياة الخصوصيـة والعنايـة بالجسـد وعوائـد الاجتمـاع ووسائل التسلية.

المبحث الثاني

في العلاقة بين الفلسفة والتاريخ

(١) فلسفة التاريخ

هـي كلمـة فلسفيـة تعنـي التأمـل التجريـدي للظواهـر البشريـة ومحاولـة تفسيرهـا. أي النظـر وتجريد الظاهر مـن ملابساتها وتحويلها إلى مفاهيم بحيـث يمكـن استخدامهـا في سياقـاتٍ أخـرى. وكلمـة التاريخ: علم التاريخ يقـوم بجمع وتحقيق وتدوين وتفسـير الأحداث التاريخيـة، وهو عندما يفعـل ذلك يبدو علـماً سكونيـاً كالجغرافية، ولكن عندمـا ننتقـل لاستكشـاف القوانـين والاستفـادة منهـا يتحـول إلى علم حركـي ديناميكـي كتحويل الجغرافيـة إلى جغرافيـة سياسية، وإنـه العلم الذي يحـاول أن يكتشـف القوانـين الموجِّهـة لحركـة المُجتمعات والدول والنهضات وأسباب صعودها وهبوطهـا، وليسـت وظيفة هذا العلـم قاصرة على توصيف هذهِ القوانين، ولكنه كأي علم آخر يسعى لاكتشـاف القوانين من أجل استخدامها وتوظيفها لمعالجة الظواهر القائمة والمستقبلية، ويمكن القول بأنَّ فلسفة التاريـخ في أبسط تعريف لها، عبارة عن النظـر إلى الوقائـع التاريخية بنظـرةٍ فلسفية ومحاولة معرفـة العوامـل الأساسيـة التـي تتحكَّـم في سـير الوقائـع التاريخيـة والعمل عـلى استنبـاط القوانين العامـة الثابتة التي تتطور بموجبهـا الأمم والدول على مـر الأجيال، فالتاريخ يسـير وفق مخطَّط معين وليس بطريقةٍ عشوائية.

(٢) الفلسفة لغةً واصطلاحاً

أصل كلمة فلسفـة يونانية، تتألَّف من مقطعين (فيـلا - سوفيـا)، (فيـلا) تعنـي الحـب أو محب أو

صديق، و (سوفيا) تعني الحكمة، وأصبحت الكلمة تعني في اللغة العربية (حب الحكمة)، ومعنى كلمة الحكمة أو الحكيم في التراث العربي الإلمام بكل صنوف المعرفة، وهناك الكثير من الحكماء العرب ممن كان يُلم بمعظم أنواع المعرفة الفلسفية والفرد الذي لم بها يُسمَّى محب الحكمة، وكان اليونان أول الأمر يستعملون كلمة (سوفيا) فقط، أمَّا (سوفوس) بمعنى الحكيم فقد أطلقها الشاعر اليوناني هوميروس على البحَّار البارع، ثمَّ أُطلقت على كل بارع في فنٍّ من الفنون، وفيلاسوفيا بهذا التركيب لم تكن معروفةً في العصور الأولى عند الإغريق، فكانوا يسمونه فيلسوف أي صديق أو محب الحكمة، وبهذا المعنى استعملها فيثاغورس (٥٧٢-٤٩٧ق.م.) الذي يُقال إنه أول مَن استعمل هذهِ التسمية فنُسبت إليه.

أمَّا المعنى الاصطلاحي لكلمة الفلسفة فمن الصعوبة إعطاء تعريف متفق عليه لهذهِ الكلمة؛ لأنَّ الفلسفة تختلف في معناها باختلاف العصور والاختصاصات، وليس بالإمكان إعطاء تعريف شامل يحصر كل معاني الفلسفة، فهناك مَن يقول إنَّ الفلسفة بصورةٍ عامة بحث في كل العصور للوصول إلى نظرية موحدة عن المعرفة الحسية أو العقلية، كذلك البحث في الموجودات وأصل الكون قِدَمه وحدوثه والنفس الإنسانية وهل هي خالدة أم فانية، وقيمة الأعمال الخلقية وعلى أساسها يقوم السلوك الإنساني.

لقد عرَّف أفلاطون الفلسفة بأنها تفكير بجمع الأشياء وفي جميع الأزمان، وعرَّفها أرسطو بأنها العلم الذي يبحث عن العِلل الأولى ومبادئ الموجودات، وعرَّفها الفارابي بأنها العلم بالموجودات بما هي موجود أو هي إيثار الحكمة، وعرَّفها ابن سينا بأنها معرفة الوجود كله بالعقل واستعمال النفس واستحصال الإنسان للفضائل، وعرَّفها ابن رشد بأنها النظر أو العلم بالموجودات من جهة دلالتها على الصانع، وهكذا يمكن القول إنَّ الفلسفة بصورة عامة تعني الكشف أو البحث عن حقائق الأشياء.

أمَّا عن بدايات الفلسفة فيكاد يُجمع معظم الباحثين على أنَّ الفلسفة أول ما بدأت عند اليونان على يد أصحاب المدرسة الطبيعية بدءاً بمؤسِّسها طاليس المالطي (٦٢٤-٥٤٦ ق.م)، في حين وجدها آخرون قد بدأت عند الشرقيين؛ لأنهم سبقوا اليونان في مجال التفكير الديني النظري، ولكن الفرق بين الاثنين أنَّ علوم الشرقيين كانت عملية صرفة في حين كانت علوم اليونان نظرية صرفة هدفها من المعرفة.

والتاريخ إذ يقوم على الأُسس العلمية وهو يعرض مركباً لجميع المعارف حول الكون والإنسان، وهكذا ساعد على وضع فلسفة للطبيعة، ومن ثمَّ للتاريخ تختلف عن الفلسفات التي سبقتها اختلافاً تاماً.

(٣) التاريخ فلسفياً

مفهوم التاريخ في الفلسفة ليس مجرَّد سرد لأحداثٍ ووقائع، إنما هو دراسة وتحليل هذهِ الوقائع، ومعرفة السبب وراء حدوثها، وتأثيرها على الإنسان، ودوره في صنعها، ففلسفة التاريخ تهتم بدراسة الوقائع دراسةً كليَّةً، لتستنبط القوانين التي تحكم حركة المُجتمعات وتقرأ دور الإنسان في صناعة التاريخ، وكذلك هو العِلم الذي يحاول أن يكتشف القوانين الموجهة لحركة المُجتمعات والدول والنهضات وأسباب صعودها وهبوطها،

حيث أنَّ فلسفة التاريخ تسعى لاكتشاف القوانين من أجل استخدامها وتوظيفها لمعالجة الظواهر القائمة والمستقبلية. ويمكن القول إنَّ فلسفة التاريخ في أبسط تعريفٍ لها عبارة عن النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرةٍ فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية، والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأُمم والدول على مر القرون والأجيال، والمعروف أنَّ التاريخ يسير وفق مخطَّط معيَّن وليس بطريقةٍ عشوائية، وأنَّ فلسفة التاريخ هي رؤية المفكر للتاريخ وحكمه عليه.

(٤) أداة فلسفة التاريخ

ربما كان علم التاريخ مجهول عند الكثيرين، ولكنه أساسي لصناع النهضة ومتخذي القرار، حيث يضع لهم أرضية صلبة ليس بما يتعلَّق بالماضي فقط بل بالحاضر والمستقبل وإنَّ هذهِ الأداة (فلسفة التاريخ) تضع بين يدي القائد مناظير متعددة لفهم حركة النهضة في المُجتمع.

وتُستخدم أداة فلسفة التاريخ في:

- اكتشاف القوانين العامة التي تقود حركة التاريخ.
- النظر الكُلي للظاهرة التاريخية في الدول والحضارات صعوداً وهبوطاً.
- فهم الماضي واستشراف المستقبل.
- تعزيز التفكير التأملي عند القادة.
- أداة للنقاش والحوار.
- التفكير المنهجي في حل المشكلات.
- عملية البعث والإحياء النفسي للأمة.

وتُعد وظيفية قادة النهضة ليست العمل الأكاديمي المتعلِّق بعلم من العلوم فهذهِ وظيفية الأكاديميين، أمَّا وظيفة القادة فهي الاستفادة من هذهِ العلوم لتغيير الواقع، وبالتالي تتحول المعارف إلى ديناميكية حيوية تنطلق فيها الحياة وتبث الدفء والنشاط والحيوية.

(٥) بين المؤرخ وفيلسوف التاريخ

من هنا يمكن أن يبدو لنا الفرق بين المؤرخ وفيلسوف التاريخ، فالمؤرخ هو ذلك العالم التي يتقصَّى أحوال الظاهرة الإنسانية موضوع الفعل التاريخي أو الحدث التاريخي الذي يؤرخ له، ويحاول أن يصل التفسير لهذا الحدث أو لهذهِ الأحداث الجزئية المكونة لحدثٍ أكبر من خلال معرفة علَّة هذا الحدث سواءٌ أكان جزئياً بسيطاً أو مركباً مستخدماً من تجميع المادة التاريخية وتمحيص الوثائق إلى مرحلة التأويل التي يتم فيها اكتشاف علَّة الحدث وتفسيره. وإذن فنقطة البدء لدى المؤرخ هي الحدث الجزئي بينما نقطة البدء لتأملات الفيلسوف هي المسار الشامل للأحداث، وهذا يعني أنَّ منهج البحث لدى المؤرخ يعد منهجاً استقرائياً يغلب عليه الطابع التجريبي، وإن لم تكن التجريبية هنا هي التجربة في العلوم الطبيعية بينما المنهج عند فيلسوف التاريخ هو المنهج العقلي حيث يعمل الفيلسوف بتأملاتهِ للوصول إلى العلَّة الكلية المفسرة للأحداث الجزئية. وثمة فرق آخر بين عمل المؤرخ وعمل فيلسوف التاريخ، يبدو إذا نظرنا إلى الهدف الذي يسعى كلاهما إلى تحقيقه فهدف المؤرخ هو تسجيل الحدث والتحقيق من صحة تسجيله بأكبر قدر من الموضوعية والنزاهة بينما هدف الفيلسوف هو تفسير مجمل أحداث التاريخ واستخراج ما يمكن أن نطلق عليه

الآليـات أو القواعـد العامـة التي تسـير بمقتضاها التاريخ الإنساني، وهنا نجـد ذاتية الفيلسوف التي تظهـر من خـلال رؤيتـه لهـذهِ المبـادئ أو القواعد المفسرة إذ تختلف هـذهِ المبادئ أو تلك القواعد من فيلسوفٍ لآخر حسب رؤيته الفلسفية العامة ووفق المادة التاريخية التي يتأملها ومدى غزارة هذهِ المادة.

(٦) التكامـل بـين عمـل المـؤرخ وعمل الفيلسوف

ليـس معنـى الفروقـات السابقـة بـين التاريخ والفلسفـة أو بين عمـل المؤرخ وعمـل الفيلسوف والاختـلاف بـين ميـداني الفلسفـة والتاريـخ، إنَّ الفصـل بينهـما مطلـق، أو إنـه لا حاجـة لأحدهمـا للآخـر، فالحقيقـة تلـك التمييـزات السابقـة استهدفـت فقـط بيـان الفروقـات بـين البحـث الفلسفي والبحث التاريخي لبيان أساس الفروقات بين عمـل الفيلسوف وعمل المؤرخ، ولا يعني هذا مطلقـاً الفصل الصارم بين عملهـما فالحق إنَّ عمل المـؤرخ ضروري جداً لعمل الفيلسـوف، وكذلك هنـاك ضرورة لأن يستفيـد المـؤرخ في عملـه مـن النظـرة الفلسفية الشاملـة للفيلسـوف، إذ لا شكَّ أنَّ عمـل المـؤرخ يحتاج إلى تلـك النظـرة الفلسفية الشاملـة إذا مـا أراد أن يجنـي مـن التاريـخ الـذي سجلـه أيـة منفعة، فالتاريـخ بدون النظـرة التأملية الشاملـة يبـدو أحداثـاً متراصة بدون فائـدة تُذكر. إنَّ المـؤرخ الـذي يـروي الأحـداث دون أن ينظـر إليهـا تلك النظرة الشاملة فهو يحمل الأحداث على ظهـره أو بالأحرى يضعفها عـلى الأوراق دون أن يتسـاءل عن مغزاها والهدف الـذي يُراد تحقيقه من وراء روايتها، وعلى المؤرخ هنا أن يتساءل أية فائدة يمكـن أن نجنيها من هذا الكم الهائل من الروايات للأحـداث التاريخيـة في مختلـف العصـور، وكيف يمكـن لأمة مـن الأمم أن تستفيد مـن هذا التراكم للأحـداث التـي عاشتها وتعيشهـا دون أن يمتلك أبنـاء هـذهِ الأمـة – أي المؤرخـين – القـدرة عـلى التساؤل عـن مغزى هذهِ الأحـداث وكيف يمكن من خلالها تأملها واستشراف ما يمكن أن تقود إليه من أحداث جديدة في المستقبل.

إنَّ للمـؤرخ حاجة للفلسفة؛ لأنَّ الفلسفة فهي عـلى حد تعبير جوزيف هورس التي تُنسق التاريخ وتعطيـه اللُحمة التي يحتاجها، وبلا فلسفة نستطيع أن ننكـر وجـود التاريخ؛ ولذلك فـإنَّ المؤرخ عليه أن يرتفـع قليـلاً فـوق روايـة الأحـداث وتتابعهـا الزمنـي، يعنـي فـوق ذكـر الحـوادث المحفوظـة المتكررة المتتالية، وهو حينئذٍ سيجد نفسه يتفلسف دون أن يعلم، والأفضل دون أي شك أنه يتفلسف وهـو يعلم، ومن أجل هذا لا بـد من تنشئة فلسفية قويـة إذا مـا أراد لعملـه أن يكون ناجحـاً ومفيداً. ونفـس الشي يمكن أن يُقال لفيلسوف التاريخ فهو بحاجـة إلى عمل مـؤرخ إذ لا بد أن يستند في رؤيته الشاملة للتاريـخ وفي تفسيره العام لمسار الأحداث التاريخيـة إلى مـادةٍ تاريخية وأمثلة كافيـة، وهو إن لم يفعـل ذلـك فكأنه يبنـي تأملاتـه وقوانينـه العقلية المجردة عـلى لا شيء، إذ إنه حينئذٍ يبني أُطراً عقلية لأشيـاء غـير موجودة أصـلاً، إنَّ ذلـك الفيلسوف الـذي يحـاول فـرض المبـادئ العقليـة التـي يؤمن بهـا عـلى التاريخ فهـو يسير باتجـاه خاطـئ. حيث لا شـك أنَّ عمـل المؤرخ مكمِّل لعمـل الفيلسوف والنظرة للتاريخ ذات فائدة لا تُرجى إلَّا من خلال الاستفـادة من الرواية العلمية للأحداث التاريخية. إنَّ عمـل الاثنـين يتكامـل لإدراك المغـزى النهائي للتاريـخ الإنسـاني سـواءٌ في أحداثـه الجزئيـة أو في التركيـب الكُـلي وإدراك الترابط الشامـل بين هذهِ

الأحداث، وإنَّ هذهِ النظرة التي يتكامل فيها عمل المؤرخ وعمل الفيلسوف بالنسبة للتفسير النهائي لأحداث التاريخ تبدو بوضوح إذا ما أدركنا أنَّ عمل المؤرخ على حد تعبير كولنجوود ليست هي الماضي في حد ذاته. إنَّ التاريخ بالنسبة للمؤرخ هو لحظتا الماضي والحاضر وأقصى ما يطمح إليه المؤرخ أن يفهم الحدث الحاضر من خلال الأحداث الماضية على أساس مبدأ العلية العلمية أي الترابط بين العلَّة والمعول، بينما التاريخ بالنسبة للفيلسوف هو لحظات الزمان الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل، وهو لا يتأمل أحداث الماضي لفهم الحاضر فقط وإنما لكي يكون لديه القدرة على قراءة أحداث المستقبل وهذهِ القراءة لما يكون عليه الأحداث التاريخية في المستقبل هو ما تتبدَّى فيه حقيقة منفعة التاريخ.

(٧) معنى فلسفة التاريخ

تفلسف فلان أي تعاطَ الفلسفة، وأصلها اللغوي كلمة يونانية مكونة من لفظتين: (فيلو) بمعنى محب، و (سوفيا) بمعنى الحكمة، ومعناها محب الحكمة لكن من الصعب جداً تحديد مدلول اصطلاحي واحد لها، فقد اختلف معناها بتغير المكان والزمان فتباينت التعريفات حسب المذاهب والأفكار، ورغم الاختلاف الشديد حول المفهوم من الناحية الاصطلاحية بسبب عدم وجود شرح دقيق ومتفق عليه لدى الباحثين شأنه في ذلك شأن العديد المصطلحات الأخرى، فإنَّ الأقدمين كانوا يطلقون لفظة الفلسفة بأعم معانيها على مجموع ثمرات العقل الإنساني واعتبروها شكلاً راقياً من أشكال الوعي، إذ سُميت أم العلوم في بداياتها الأولى لأنَّ مباحثها اقتحمت جميع الميادين المعرفية الأخرى، ثمَّ تطورت مع الزمن كمنهج وأسلوب في البحث. وقد اختلف الباحثون في تاريخ الفلسفة حول مكان نشأتها الأولى ووقفوا في هذهِ المسألة بطريقتين فريق أول يردُّون بدايات التفلسف إلى الحضارة الإغريقية باعتبار أنَّ أول مَنْ أطلق هذهِ الكلمة على الحكمة هو فيثاغورس الفيلسوف اليوناني الشهير الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، أمَّا الفريق الثاني يردُّون نشأة الفلسفة الأولى وبداية التفلسف إلى تراث الشرق القديم أي إلى المصريين القدماء والبابليين والكلدانيين والصينيين، ورغم هذا الاختلاف فإنه يجب الإشارة إلى أنَّ اليونانيين الإغريق هم الذين نبغوا في علم الفلسفة، ومع ذلك لا يجب أن ننسى التأثيرات الكبيرة للشعوب الأخرى على اليونانيين الذين فتحوا بلاد كثيرة، إذ نُشير على سبيل المثال إلى رواياتٍ كثيرة عند هيرودوت، تؤكد زيارات قام بها فلاسفة يونانيين لبلاد مصر وغيرها أخذوا خلالها العديد من المعلومات واقتبسوا ما تيسَّر لهم من الأفكار والحقائق في ميادين عدة وعلوم عديدة وهذا يؤكد فضل حضارات الشرق على الغرب.

الفلسفة هي علم يهتم بدراسة القوانين الأكثر شمولية لتطور الطبيعة والمُجتمع والتفكير البشري، وقد كان للفلسفة صدى في التاريخ عِبرَ فلسفة التاريخ، وذلك بحثاً عن القوانين الأكثر شمولية في التاريخ والتي تُشير إلى مقصد حفي يتحقق عبر الزمن التاريخي، ويُعد الكاتب الفرنسي المشهور فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨)، أول مَن استعمل تعبير (فلسفة التاريخ)، على أنَّ المؤرخين في أيام المؤرخ الإغريقي توسيد يدس (٤٥٦-٣٩٦ق.م.)، حاولوا تفسير الأحداث التاريخية دون أن يذكروا هذا التعبير وعلى الرغم من الأبعاد الإيجابية للعلاقة بين الفلسفة والتاريخ بصفته حقلاً من

حقـول المعرفـة فالعلاقـة بـين المـؤرخ وفيلسـوف التاريـخ تظهـر سلبيـةً في بعض جوانبهـا، فإحدى المشـاكل المثيرة للجـدل والنابعة من حرص المؤرخ الحديث والمعـاصر على إثبات الواقعة التاريخية عن طريـق الوثيقة سواءٌ أكانت صكـاً أم أثراً شاخصاً، بـل إنَّ مؤرخـي المدرسـة الألمانيـة الحديثـة أعطوا الوثيقـة منزلـة مقدسـة لكونها أهم وسيلـة للتعبير عـن الحقيقة في المـاضي، وعلم التاريـخ هو الحقيقة الماضيـة المثبتة بالوثيقـة، حتَّى قيـل لا تاريخ بدون وثيقـة. وتجاوزا على هذا الموقـف الذي تبناه الكثير مـن المؤرخين يلاحـظ أنَّ بوسع فيلسـوف التاريخ يقـدم رؤية نظرية قائمـة على الاجتهـاد القائم على تحليـل الوثيقة، وفي أحسن الأحـوال فإنَّ فيلسوف التاريـخ لا يجد تحفظ كثـيراً في استعمال فهم مقارن لتعليـل ظاهـرة مـا في مرحلـة تاريخية اعتـماداً على تعليـلات سابقـة أو لاحقة أيدتهـا أو تؤيدها وثيقة تاريخية غير أنَّ ذلك يكـون في إطار النظرة الشاملة التي تعالج الجزيئات من أجل استخلاص القوانين العامة.

(٨) فلسفة التاريخ عند ابن خلدون

إنَّ فلسفـة التاريـخ عند ابن خلـدون في أبسط تعريـف لها عبـارة عن النظـر إلى الوقائـع التاريخية بنظـرة فلسفية ومحاولـة معرفة العوامـل الأساسية التـي تحكـم سـير الوقائـع التاريخيـة والعمـل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمـم والدول والأجيال؛ لذلـك يُعد ابن خلدون أول مَـن نظـر إلى التاريخ برؤيـةٍ فلسفية وسعى إلى صياغـة نموذج فلسفي تفسـيري للتاريخ الإنساني رغـم أنَّ دراستـه اقتـصرت عـلى الدويـلات التي ظهرت في شـمال أفريقيا في القرنـين الثاني والثالث عـشر، لكـن مـا توصـل إليـه عـن فكـرة التعاقب الـدوري للتاريـخ لا يـزال يرددهـا الكثـير مـن الفلاسفـة مـن بعده من أمثـال شبنغلـر ومالك بن نبي وغيرهم.

وقد ميَّز ابـن خلدون بين علم التاريخ وفلسفة التاريـخ، ذلـك أنَّ علـم التاريـخ يبحـث في العلل الظاهرة التي تُفـسر الحوادث التاريخية، بينما فلسفة التاريـخ تبحـث في العلل الباطنة التـي تُفسر مجرى التاريـخ الإنساني، فيقول إنَّ ظاهرة علم التاريخ لا يزيـد عن أخبار عـن الأيام والـدول والسوابق من القـرون الأولى تنمـو فيهـا الأقوال وتُـضرب فيها الأمثال وفي باطنهِ نظرٌ وتحقيق.

تميز الفكر الخلدوني الذي اعتمد حكمة التاريخ واستند إلى تجربةٍ عملية في الحياة العامة، فقد قامت فلسفته للتاريخ على الملاحظـة بالإبداع في جوانب عديـدة منه، لاسيَّما في معالجـة ابن خلدون للتاريخ كعلم لـه قواعـد في الدراسة والبحـث وكأحداث تُصـاغ منهـا رؤيـة مفـسرة لطبيعـة حركـة التاريخ واتجاهاتها. وقد أُشيد بالفكر الخلدوني بعد اكتشافه من قبل الغربيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكـان كثير من جوانب الإشـادة هذهِ ينصب عـلى العمـل التاريخـي الخلـدوني الـذي أبـدع فيـه بـ(المقدمـة)، سـواءٌ مـا تعلَّـق منه بعلـم التاريخ أو بعمليـة تفسير حركـة التاريخ، وهـي العملية التي يمكـن أن تنضوي تحـت مصطلح فلسفـة التاريخ التأمليـة أو النظريـة. وقـد أجاد في تنظـيره لقواعد العلـم في التاريـخ فمن المهـم أن نطلـع على بعض الآراء التي قومت التفسير الخلدوني لحركة التاريخ لنتبين فيما إذا كان هذا التفسير مستوفياً للشرط التي تؤهله أن ينـدرج ضمن فلسفة التاريـخ التأملية أم لا.

وبعيداً عن الإشادات بجوانب مختلفة نبغ فيها ابن خلدون وتميز في معالجتها في مقدمتهِ. فإنَّ الجانب المتعلق بفلسفة التاريخ التأملية فحسب وجد في كتابات الغربيين وسواهم ما يُشير إلى ريادة ابن خلدون، وقد سبقهم في تناول الموضوع، وكونه صاحب نظرية فيه فقد عدَّه على سبيل المثال (روبرت فلنت) مؤسساً لفلسفة التاريخ لا يمكن أن ينازعه على هذا اللقب أحد عاش قبل الإيطالي فيكو. وهو في نظر فلنت أيضاً لا يُقارن في مجال البحث النظري في التاريخ، وهو ما يعني فلسفة التاريخ النظرية أو التأملية من قبل، أي من معاصريه والذين جاءوا من بعده حتَّى عصر فيكو، وكان تفرده بين هؤلاء كتفرد (دانتي) في الشعر وبيكون في العلم، ورأى جورج سارتون هذا الرأي نفسه إذ يقول عنه إنه كان من أوائل فلاسفة التاريخ الذين سبقوا فيكو، ورأى (آرنولد توينبي) أنَّ ابن خلدون قد توصَّل في مقدمة تاريخه العام إلى صياغة فلسفة للتاريخ كانت عملاً عظيماً في مجاله، أمَّا (رينولد نيكلسون) فقد عدَّ ابن خلدون مكتشفاً في عمله التأملي للتاريخ لقوانين التقدم والتدهور، وذلك مما يؤهل عمله بطبيعة الحال ضمن نطاق نظرية في فلسفة التاريخ التأملية.

إنَّ ابن خلدون قد سبق الغربيين المحدثين في موضوع فلسفة التاريخ، إلَّا أنَّ ما قد يختلف فيه هو هل تمكَّن ابن خلدون من صياغة نظرية متكاملة في فلسفة التاريخ؟ والإجابة إنَّ مصطلح فلسفة التاريخ شهد تطوراً في دلالته منذ ابتكاره من قبل فولتير في أواخر القرن الثامن عشر ووصولاً إلى استقرار مفهومه الثنائي إلى فلسفة تاريخ نقدية وتأملية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومن ثمَّ فإنَّ المفهوم المعاصر لفلسفة التاريخ التأملية لا ينطبق على تفسير ابن خلدون لحركة التاريخ من خلال نظرية العصبية والدولة وملحقاتها كالعِمران ودورة البداوة والحضارة، ذلك أنَّ التفسير الخلدوني لا يتعلَّق بالتاريخ العام بل يختص التاريخ الإسلامي، لاسيَّما تاريخ المغرب منه، فابن خلدون كما يقول محمد عابد الجابري لم يكن فيلسوف تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كان فقط مفلسف تاريخ معين هو تاريخ الإسلام إلى عهدهِ.

المبحث الثالث

التشكل المعرفي في نشأة فلسفة التاريخ

(١) نشأة فلسفة التاريخ

أول مَن اخترع مصطلح (فلسفة التاريخ) واستعمله في كتاباته هو فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨)، ولم يكن فولتير يقصد عند استعماله لهذا المصطلح أن يُنشئ فرعاً من فروع الدراسات الإنسانية أو علماً من علومها، وإنما قصد أنَّ على المؤرخ أن يستخدم منطق الفلسفة العقلاني في دراسة التاريخ دراسة نقدية تحليلية ومن غير استسلام لما أوردته الكتب القديمة من أخبار وروايات، غير أنَّ فلسفة التاريخ لم تلبث أن تحولت إلى موضوع مستقل له منهجه وأهدافه، وهناك قسم من المؤرخين مَنْ ذكر إنه لم تنشأ فلسفة التاريخ لأول مرة في العصور القديمة وإنما وجدت تلك الفلسفة داخل إطار نظرية التقدم التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والواقع إنَّ المؤرخين المسيحيين كانت لهم فلسفة تاريخية محددة قائمة على اللُحمة المسيحية، هي التي أمدت فلسفة التاريخ بطاقة كبيرة ودفعتها دفعه قوية، ولكن لم تبقَ ضمن

دائـرة الرومانيـين، والواقـع أنه كانـت للرومانيين أسباب كافيـة ووجيهة للاهتـمام بالفلسفة المرتبطة بتاريـخ الإنسانية، حيث أدى إلى توفـر كمية هائلة مـن المعلومات التاريخية العمليـة التي يعتمد عليها والتـي يمكـن منهـا التوصـل إلى أحكـام كثـيرة. فحقيقـة التاريـخ هي من اختصـاص الفلسفة التي يعـترف فيها المؤرخ اعترافاً واضحاً أو غير واضح، فالتاريـخ لا يستطيع وحده وبكفاية ذاتية أن يغذي حيـاة داخليـة وثقافيـة في إنسـان، ولا يستطيـع أن يصبح العنصر المديـر فهذا الذي لا يقدر على تمثيله غير الفلسفة وهي الفكر المحكوم بالنظريات.

وقـد شُبِّه فلاسفـة التاريخ بفلاسفـة السياسة، حيث أنهم يتصـورون نموذجاً مثالياً صالحاً لجميع الشعـوب في كل العصور، كذلـك فلاسفة التاريخ في تاريخهـم العالمي يضعون تاريخاً لكل المُجتمعات في كل الأزمـان. إنَّ فلسفـة التاريخ هـي مزيج من التصـور والخيـال، وإنَّ فلاسفـة التاريـخ يطلبـون كشـف النقـاب عـن التصميـم الـذي يقـوم عليـه تاريـخ العالم من البداية إلى النهايـة، حيث أنَّ نقطة الانطـلاق في فلسفة التاريخ لـدى ابن خلدون هي التمييـز بين الظاهر والباطـن في التاريخ في ظاهره، لا يزيـد عـلى أخبار عـن الأيام والـدول والسوابق من القـرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ،ومبادئهـا دقيقة وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميـق، فهو بذلك أصل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعد في علومها خليق.

وفي المقـولات الأساسيـة التـي قامـت عليهـا فلسفـة التاريـخ في صورتهـا التأمليـة يظهـر مـن النصـوص التـي عرضناها عـن هـذهِ الفلسفة أنها تقوم على مقولتين، هما:

الكُلية: ويقصد بها أنَّ فيلسوف التاريخ يرفض أن يكـون التاريـخ ركامـاً مـن الأحـداث المتعاقبة التـي لا يربطها نظام ولا هـدف، إنه يسعى إلى فهم التاريخ على أساس أنه يمثل وحدة عضوية مترابطة الأجـزاء، ومن ثمَّ فإنَّ نقطة البدء في فلسفة التاريخ هـي التكامـل بـين أجزائـه والترابـط بـين وقائعـه وصـولاً إلى فهـم التاريـخ عـلى أسـاس أنـه تاريخ عالمـي شامل للإنسانيـة. ففلسفـة التاريخ لا تقف عند عصرٍ معين، ولا تكتفي بمجتمع خاص، وإنما تضـم العالم كله في إطـارٍ واحد من الماضي السحيق حتَّـى اللحظة التي يدوِّن الفيلسوف نظريته. بل إنَّ فلسفـة التاريخ قـد لا تقتنع بذلـك فتمد تصوراتها إلى المستقبـل، وبذلـك تكون قد أوجـدت الوحدة بـين الأشتات والنظام في العماء والمعنى فيما يبدو لا معنى.

العِلية: هي السبب المحـرك للأحداث بصورةٍ مبـاشرة أو غـير مبـاشرة، ومـن ثـمَّ فـإنَّ التعليـل التاريخـي هـو محاولـة استكشـاف علَّـة الأحـداث الماضيـة من خـلال استنبـاط السبـب أو الأسباب التـي أدت إلى وقوع تلك الأحداث. ويتقيد المؤرخ دائـماً في استنباطـه للأسبـاب بواقعة جزئيـة ملتزماً بحـدود الزمان والمكـان اللذين وقعـت فيهما تلك الحادثـة، فمنهج المؤرخ في تعليـل الأحداث منهج تجريبي تاريخي بمقولات الفردية والزمان والمكان. أمَّـا التعليـل في فلسفـة التاريـخ فإنه يختـزل العِلل الجزئيـة للحوادث الفردية إلى علَّة واحدة أو علَّتين عـلى الأكثـر يفـسر في ضوئهـا تاريخ العـالم. وعلى سبيـل المثـال فقد لجـأ سانت أوغسطـين إلى تفسير تاريـخ العـالم منذ خلـق الله آدم وحتَّى يـوم القيامة إلى علَّـة واحدة هي العنايـة الإلهية، ولجأ هيجل إلى تفسـير تاريخ العـالم بعلَّة تعبير الـروح عن حريتها

في مسار التاريخ، كما قام ماركس بتفسير التاريخ استناداً إلى الصراع المادي، وهناك مَن فسَّر العالم الجغرافي أو القومي أو النفسي على أنها محركات للتاريخ وهكذا.. فإنَّ فلاسفة التاريخ يحاولون تفسير تاريخ الإنسانية استناداً إلى عامل أساسي واحد يعتقدون أنه هو المحرك المركزي لأحداث التاريخ وهم يختلفون في تحديد هذا العامل بحسب اختلاف الفلسفات التي ينطلقون منها في فهم التاريخ. وهذا التوجه يحملهم على الابتعاد عن الدقة في دراسة أحداث التاريخ.

(٢) أسباب نشأة فلسفة التاريخ

هناك عدَّة أسباب أدت إلى نشأة فلسفة التاريخ، نذكرها:

(أ) أوضح فولتير أنَّ هدف فلسفة التاريخ هو اكتشاف الحكمة، أو المعنى الذي تتحرك أحداث التاريخ من أجل تحقيقه؛ لأنه وجد أنَّ ما يكتبه المؤرخون لا يُحقق هذا الغرض، وقد عبَّر عن ذلك بقولهِ: بعد قراءة ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف معركة وآلاف من المعاهدات والرسائل لم أجد نفسي أكثر حكمةً ممَّا كنت قبلها، حيث لم أتعرف إلَّا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة؛ لذا فقد دعا إلى تطبيق الفلسفة على التاريخ ومحاولة تتبع العقل البشري من وراء الحوادث السياسية، وقال: لا ينبغي أن يكتب التاريخ سوى الفلاسفة، لقد شوهت الأساطير التاريخ عند جميع الشعوب.

(ب) لاحظ ديكارت أنَّ التاريخ يشد المؤرخ إلى الماضي حتَّى يصبح لشدَّة أُلفته له غريباً عن الحاضر، كما ينتهي بالرجل كثير الأسفار إلى أن يصبح غريباً عن وطنه؛ لذا كان من الضروري بالنسبة للمؤرخ أن ينفتح على الحاضر وعلى الأفكار الفلسفية المعاصرة كي يستطيع أن ينظر إلى الماضي بطريقةٍ متوازنة، وأن يستطيع أن يستخرج العِبر التي تفيد الناس في الحاضر والمستقبل.

(ج) إنَّ المؤرخ الذي يعيش تحت وطأة الماضي دون الانفتاح على الحاضر يُصاب بحالةٍ تشبه الإصابة بالمرض. وقد أسماها نيتشه (داء التاريخ) أي آفة العقل الذي يمنح ولاءه الكامل للماضي فيفقد قدرته على التفكير بالمستقل والإبداع؛ لأنَّ الحالة الإبداعية لفكر الإنسان إن أفادت من حصيلة الماضي فلا بد أن تنفصل عنه، إذ الحالة التاريخية متعارضة بطبيعتها مع اللحظة الابتكارية التي تشد إلى الماضي إلى الوراء، بينما الأخيرة خطوة إلى المجهول إلى الأمام.

وهكذا فإنَّ فلسفة التاريخ تعوض عن القصور لدى المؤرخين، وإذ تجعل لوقائع التاريخ المتراكمة المتتالية معنى ومغزى، وهي إذ تبدأ كما لاحظ كروتشه من مشكلة قائمة في الحاضر فإنها تقيم الإنسان دائماً وتربطه فيه، ومن ثمَّ يغوص في أعماق الماضي السحيق فيجعله غريباً عن حاضره.

(د) وأخيراً فقد أُشير إلى أنَّ فلسفة التاريخ قد نشأت ليس بسبب تلبيتها لحاجات المؤرخين فقط، وإنما بسبب تلبيتها لحاجات المجتمع في أوقات الأزمات والشدة، وذلك لأنَّ هذهِ الأوقات كما لاحظ نيقولا بردائيف كانت دائماً حافزاً على التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرة للاهتمام بتفسير التاريخ وتعليله.

(٣) تاريخ فلسفة التاريخ

فلسفة التاريخ إنما هي تعبير عن الوعي الشرقي والإغريقي للتاريخ وإسهاماته العفوية،

والتي تبلورت لتشكل موضوع فلسفة التاريخ ومن ثمَّ فهي إرهاصات كانت تمثل محاولات بسيطة لإدراك الحكمة في حركة التاريخ، وقد استمدت بساطتها من المرحلة التطورية التي كانت تمر بها الإنسانية آنذاك الأمر الذي جعل وعي الإنسان التاريخي يتسم بالطابع الأسطوري تارة والخرافي تارةً أخرى. كما وكان للعرب المسلمين دورٌ بارزٌ ومؤثرٌ في نشأة وازدهار حكمة التاريخ، وذلك من خلال جبهتي الفلاسفة والمؤرخين، ولا يقتصر الإبداع العربي التاريخي على كتاب المقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون، بل تعداه إلى القرن الثالث الهجري ومن ذلك الحين وحتَّى ظهور مقدمة ابن خلدون نمت وتطورت الرغبة في معرفة الحقيقة التاريخية. ويُعد كتاب أوغسطين من حيث دوافعه وأهدافه أول محاولة لوضع خلاصة وافية لفلسفة التاريخ فهو قد عاصر محنة تقسيم الإمبراطورية الرومانية وعايش إرهاصات سقوط قسمها الغربي الذي تسبَّب في ضعفها الناجم عن انتشار المسيحية، فيما كان شائعاً، فكان ذلك وازعاً له ليتأمل مسيرة التاريخ.

بيد أنَّ الكثير من مفكري العالم ذهبوا إلى أنَّ ابن خلدون هو منشئ هذا الفرع من فروع الفلسفة، أمَّا من الناحية التاريخية ترجع فلسفة التاريخ إلى العصور القديمة فتعني البحث في المبادئ العامة التي يخضع لها تطور المُجتمعات البشرية، وهي تعني بتفسير التاريخ على ضوء نظرية عامة على أنه كل غير منقسم على أحداث، ولقد كان الصراع محتدماً حول تاريخ فلسفة التاريخ ومَن هو الأب الحقيقي لفلسفة التاريخ، ورشح لنيل هذا الشرف الكبير العديد من المؤرخين في الفكر الإنساني القديم، وإننا نجد من الصعب أن نجد من المفكرين القدامى مَنْ لم تكن له هذهِ النزعة التأملية في قراءة التاريخ بوجهة فلسفية.

إنَّ بعض الباحثين رأوا أنَّ سانت أوغسطين كان أول مَنْ كتب في فلسفة التاريخ، إذ ألَّف كتابه (مدينة الله)، على الرغم من أنه لم يكن مؤرخاً أو فيلسوفاً وأنه كان رجل لاهوت، وأنه قد عرض آراءه حول مسيرة التاريخ وغايته في إطار تصوراته الدينية وتفسيراته للكتاب المقدس عند المسيحيين. وقد عبَّرت كتابات أفلاطون وأرسطو عن روح هذهِ الفكرة من خلال كتاباتٍ تضمنت فلسفة التاريخ جاءت بها ضمناً.

ففلسفة التاريخ هي المستقبل؛ لذا فقد اتجه غالبية الباحثين الغربيين نحو الأخذ بالرأي القائل إنَّ جامباتيستا فيكو (١٦٦٧-١٧٤٤) أباً لفلسفة التاريخ أو مؤسساً لها قبل أن يطلعوا على كتابات ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦)؛ وذلك لأنَّ فيكو كان أول كاتب له إنتاج قيم في فلسفة التاريخ، وإنَّ أول استعمال للفظ فلسفة التاريخ يعود إلى فولتير وقد قصد بهذا المصطلح لدراسة التاريخ من وجهة نظر المتفلسف دراسة عقلية، وتُعد نقطة الانطلاق لدى فولتير إمَّا نقطة الانطلاقة في فلسفة ابن خلدون فتمكن في التمييز بين الظاهر والباطن في التاريخ، ومن هذا التمييز فهي لا تقف عند موضوع بذاتهِ أو عصر معيَّن، وعندما نطرح قضية تاريخ فلسفة التاريخ موضوعاً للنقاش فإننا لا بد من أن نقول إنَّ النظريات الأولى لتفسير التاريخ التي مثَّلت بدايات تبلور الفكر التاريخي في الحضارات القديمة أو هذهِ البدايات كانت مرتبطة بدورها باكتشاف الكتابة كأداة للتدوين التاريخي، ولم يكن للكتابة بعد أن عرفت أن تؤدي شيئين في هذا المجال قبل أن يخصص جانب من وظيفتها

لتسجيل حوادث الماضي أو للتدوين، وفلسفة التاريخ تاريخياً بدأت مع نمو الوعي التاريخي للإنسان أو كانت البداية عندما أخذ الإنسان يفكر في أحداث الماضي واستغرق في التأمل، ومع وضعه لعلامات استفهام حول ما نقله له المؤرخ فكانت الحاجة ماسة لأن يقف الإنسان على أطلاله، ويستغرق في البحث والتفكير ومع ازدياد التأثير بالأساطير ومبالغات التاريخ كانت الضرورة لإعادة قراءة التاريخ من أوليات العقل الفلسفي.

وتؤدي فلسفة التاريخ وظيفة ثانوية تبلورت عن عمليتي تفاعل لمفاهيم فلسفية مع التاريخ كحوادث تخص الماضي البشري، وكدراسة لها دعيت الأولى منها فلسفة التاريخ التأملية وعُرفت الثانية بفلسفة التاريخ النقدية، فكان لكل من هاتين الفلسفتين للتاريخ قبل أن تتبلور موضوعاً مستقلاً قبل أن يظهر مصطلح فلسفة التاريخ على يد فولتير دوافع أدت إلى الاهتمام بها، وغايات موضوعية وربما ذاتية أحياناً كان يأمل بلوغها المهتمون بها، ومع اتضاح وظيفة كل من فلسفتي التاريخ، لاسيما النقدية منهما في أواخر القرن التاسع عشر، ومن هنا نشأت فلسفة التاريخ لتلبية حاجات الإنسان الفكرية فمن المعلوم أنَّ الإنسان كلَّما انتابه في حاضره من مخاطر ومآسي وجزع على مصيره لاذ بالتاريخ والماضي يستلهمه، ومن هنا نستشهد بملاحظات بعض الفلاسفة الذين درسوا التاريخ فقد لاحظ نيقولا برادائيف، إنَّ عهود النكبات في التاريخ الإنساني كانت دائماً حافزه على التفكير في الماضي وفي المصير مثيرة للاهتمام بتفسير التاريخ وتعليله، وحاول أوغسطين أن يفسر التاريخ حيث عاصر تداعي العالم القديم وسقوط روما، وبلغت الحضارة الإسلامية مرحلة تدهورها فألهم ذلك ابن خلدون أن يضع أول نظرية في فلسفة التاريخ، واجتياح نابليون للأرض الألمانية دفع هيجل أن يقول نظريته في التاريخ، وإنَّ خوف شبنغلر وتوينبي على مصير الحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الأولى هو الذي شكَّل مذهبيهما في فلسفة التاريخ، ومن الملاحظ أنَّ التاريخ يطالعنا في أحلك الفترات على إمكانية صدور أرفع الفلسفات، وهنا المقصود ليس التاريخ العادي بل فلسفة التاريخ؛ وذلك لأنها تصل التاريخ بالإنسان وترفعه إلى مرتبة الوعي، وهناك نقطة مهمة ترتبط بتاريخية فلسفة التاريخ هي أنَّ الحضارة مجموعة من الخصائص الخاصة بالحياة الفكرية والفنية والمادية وأنَّ الحضارة هي موضوع فلسفة التاريخ.

(٤) أبرز اتجاهات فلسفة التاريخ

(أ) المثالة والمادية:

للفلسفة المثالية وجود قبل أن تمتد مباحثها في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وكانت تلك المباحث تتعلَّق بنظرية الوجود ونظرية المعرفة ومواضيع أخرى كالقيم والجمال، فضلاً عن مجالها الحيوي الأساسي المتمثل بالميتافيزيقيا ومباحث الفلسفة المحضة بصورةٍ عامة، ولعلَّ أفلاطون كان أقدم فيلسوف مثالي تبنَّى المثالية الموضوعية، إذ كان يرى أنَّ الجزئيات الحسية ليس لها وجود حقيقي، وإنما صورها النوعية هي ذات الوجود الحقيقي لها. فصورة الإنسان هي الحقيقة، بينما الجزئي المحسوس من بني الإنسان

كزيد وعمرو ليس له وجود حقيقي، إلَّا بمشاركته في صورة النوع الإنساني، وعليه فإنَّ المثالي هو كل ما ينتسب إلى الفكرة والفكرة تقابل في معناها الواقع المادي الخارجي، ومن ثمَّ فإنَّ المثالي هو كل أمر يوجد في العقل أو الذهن بما أنه فكرة فحسب؛ لذلك فإنَّ المعنى الذي يعطى أحياناً للمثالي، إنَّ المثالي مقابل الواقعي ومن هنا يمكن القول بأنَّ التفسير المثالي للتاريخ يعني التفسير الذي لا يعزو حركة التاريخ إلى دوافع مادية لها واقعية، كالدوافع الاقتصادية، والطبيعية والجغرافية والفردية (البطولية) والاجتماعية (البشرية)، بل يفسر التاريخ بدوافع مثالية، أو ميتافيزيقية، ليس لها وجود مادي أو واقعي خارج الذهن أو الفكر، ومنذ عصورٍ متقدمة كانت الرؤية الفلسفية المتناقضة وراء انقسام الناس إلى فريقين رئيسين هما المثاليون والماديون، والمثالية تعني باختصار شديد تأكيد أسبقية الظواهر الموجودة في وعي الإنسان كالفكرة والإحساس والإرادة والرغبة. أمَّا المادية فإنها تعني أسبقية الظواهر التي توجد مستقلة عن وعي الإنسان كالماء والنبات والحيوان، وقد عرف تاريخ الفلسفة نوعين من المذاهب المثالية هما المثالية الموضوعية والمثالية الذاتية، ويُقصد بالموضوع ما يوجد خارج الإنسان مستقلاً عن وعيه. ويذهب بعض المثاليين بالقول بأنَّ فكرة موجودة موضوعياً هي التي ولدت العالم، ومن أبرز هؤلاء المثاليين الموضوعيين الفيلسوف الإغريقي أفلاطون والفيلسوف الألماني جورج هيجل، أمَّا الذاتي فهو ما يميز ويلازم الشخص المعني، ويعد بعض الفلاسفة ومنهم الفيلسوف الإنكليزي في القرن الثامن عشر باركلي، أنه لا يوجد في الواقع غير الإنسان لذاته ووعيه. أمَّا الأشياء فلا توجد إلَّا حينما يُدركها الإنسان بحواسه. أمَّا إذا لم يُدركها بحواسه فلا وجود لها.

فالعالم موجود في الوعي أو الإدراك وبخلاف هؤلاء الماديين أنَّ الأشياء الظاهرات المحيطة بالإنسان موجودة واقعياً، أي مستقلة عن الوعي ويزعم الماديون أن النظرة المادية يمكن تصورها عفوياً عندما تُشير مادة من المواد بخواصها الموضعية المستقلة عن الإنسان إحساسات معينة كالحلاوة في السكر مثلاً، على أنَّ هذهِ النظرة يمكن تأكيدها علمياً بواسطة المادية الفلسفية التي تُعبر عن المادة العلمية. فتطلق المادية على المذهب القائل إنَّ الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد وهو المادة، وإنَّ العالم مجموعة مكونة من شيء واحد، ويذهب إلى أنَّ المادة أساس كل شيء، وينكر وجود روح قائمة بنفسها قد تتصل بالمادة وقد تنفصل عنها كالحصان يربط في العجلة ويحل عنها، فيقول موليشت مضى الزمن الذي كان يقال فيه بوجود روح مستقلة عن المادة، فالماديون يرون أن لا شيء غير المادة مخالفين في ذلك الروحانيين، كما أنهم يخالفون الاثنيين القائلين بأنَّ الظواهر لا ترجع إلى شيء واحد بل إلى أصلين: المادة، والروح أو العقل. ويرى هؤلاء الماديون أنَّ ما نسميه العقل ليس إلَّا شكل من أشكال المادة الدائمة التغيير والتنوع، وليست المادة كتلة عديمة الحياة لا حركة بها، تأتي إليها الروح وهي منفصلة عنها، فتنفخ فيها وتنتج حياة وإنما القوة ملازمة للمادة ومظهر من مظاهر المادة المتنوعة، الحياة والفكر ليستا إلَّا صفتين غريزيتين للمادة ونتيجة.

(ب) نهج البحث الفلسفي:

هناك طريقتان استنبطهما الفلاسفة لمعرفة العالم بكل ظواهره، الطريقة الفلسفية الأولى تنطلق من النظر إلى الظواهر والأشياء بوصفها جامدة لا تتحرك ولا تتغير، بينما تُعبر الطريقة الثانية المعروفة بالديالكتيكية عن أسلوب الفلاسفة القدماء في إقرار الحقيقة في الجدل بواسطة صراع مختلف الرأي. وفي العصر الحديث الذي شَهِد ظهور الفلسفة التجريبية أو الفلسفة الطبيعية – التجريبية أو الفلسفة الطبيعية تحقق انفصال منهج العلم عن منهج الفلسفة، ومن ثمَّ استقلال العلم عن الفلسفة أيضاً، لقد كان لهذا التطور صداه على الفلسفة. فالمادية على الرغم من أنها ظلت ميتافيزيقية إلَّا أنها عرفت فهما جديداً على يد فيورباخ (١٨٠٤-١٨٧٢).

(جـ) فوائد فلسفة التاريخ:

فلسفة التاريخ تجعل المؤرخ ينفتح على الحاضر، وعلى الأفكار الفلسفية المعاصرة كي:

١- ينظر إلى الماضي بطريقة متوازية علمية، وأن يستخرج العِبر للناس. من التحليق في عالم المجردات والابتعاد عن المبالغات في التاريخ.

٢- ممَّا يخرج أحكامهم العامة بالوقائع التاريخية. إنها تلبي حاجات المجتمع في أوقات ا لأزمات والشدة لأنَّ هذهِ الأوقات عادة ما تكون حافزاً.

٣- على التفكير في الماضي وفي المصير مهمة، ومثيرة للاهتمام بتفسير التاريخ وتعليله.

(د) أهداف فلسفة التاريخ:

١- الأهداف الكلية: تبدو حوادث التاريخ أمام الفيلسوف مشتتة لا رابط بينها، وعبارة عن أكوام تتراكم فوق بعضها؛ لهذا فهو يرفض أن يكون التاريخ فوضى من الأحداث والمصادفات والكوارث التي تتلاحق ببعضها، وتتخللها ومضات قصيرة من السعادة، فيطلب الفيلسوف في الوحدة العضوية بين هذهِ الأجزاء، حيث إنَّ نقطة البدء في فلسفة التاريخ تبدأ من تكامل الأجزاء وترابط الوقائع، حيث يتشكَّل من ذلك كله ما يُسمى بالتاريخ العالمي؛ لذلك فإنَّ فلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين ولا تكتفي أيضاً بمجتمع خاص، بل تضم العالم بأجمعه في إطار واحد يربط بين الماضي والحاضر الذي يدون فيه الفيلسوف نظريته.

٢- الأهداف التعليلية: يلجأ المؤرخ العادي إلى التعليل ولكنه يتغير بشكلٍ دائم في استنباطه للأسباب واقعية جزئية أو محددة، وبذلك يبقى ملتزماً بأطر التاريخ أو مقولاته.

٣- واقع الإنسانية ومستقبلها: هو جوهر الأهداف التي تدعو إليها فلسفة التاريخ، فقد كان للتطور الذي شَهِدته فلسفة العلم نتائج مهمة على العديد من حقول المعرفة، فقد كانت القضية الأكثر إثارة هي رفض مفهوم الحقيقة المطلقة وارتقاء مفهوم الحقيقة النسبية، وصدى هذا التطور العلمي على العلوم الإنسانية تجاوز جميع الأبعاد التي يمكن تصورها، ففي الفلسفة أصبحت المسائل الفلسفية التي تتعلَّق بمعنى الحياة كالسعادة والحرية قابلة لفهم إنساني قد يصل إلى حد التناقص، وذلك حسب الانتماء الاجتماعي أو السياسي.

الخاتمة

عبر سير العمل في هذا البحث (التشكُّلات الأولى في فلسفة التاريخ)، تمَّ التوصل إلى نقاطٍ عُدت خاتمة للكتابة في مشروع البحث، وهي:

أولاً: الضرورة العلمية لفلسفة التاريخ تتجدد كلَّما تطورت وسائل البحث العلمي.

ثانياً: ظهرت التشكُّلات الأولى لفلسفة التاريخ مع ظهور المبالغات والأغاليط في النصوص التاريخية، ممَّا استدعى تمظهراً للخطاب العقلاني في التاريخ، وهذا أدى إلى تطور مفاهيمي في تبلور فلسفة جديدة للتاريخ.

ثالثاً: العلاقة بين المؤرخ والفيلسوف علاقة تكاملية، ولا يمكن فكُّها أو تجاهلها أو تجزئتها، وإنما كان ظهور فلسفة التاريخ نتيجة لغياب هذهِ العلاقة التكاملية.

رابعاً: لم تظهر فلسفة التاريخ بمعناها الاصطلاحي إلَّا مع ظهور عصر النهضة الأوربية الذي شمل نهضة شاملة في كافة ميادين المعارف والعلوم، ممَّا استوجب أن يكون التاريخ واحداً من تلك العلوم التي نهضت متبعةً المنهج العلمي الجديد.

خامساً: ظهور فلسفة التاريخ اصطلاحياً على لسان فولتير لا يعني عدم وجودها عند المؤرخين والفلاسفة، ولكن كانت تأخذ تسمية أخرى غير التي جاء بها فولتير، وهي (الوعي التاريخي)، فقد جاءت جليةً عند القديس أوغسطين وابن خلدون وغيره من مؤرخي اليونان أمثال هيرودوت.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

- أحمد محمد صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسَّسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٥.

- ارنست كاسير، في المعرفة التاريخية، ترجمة: أحمد حمدي محمود، ط٢، مصر، ١٩٩٧.

- أسد رستم، مصطلح التاريخ، مؤسَّسة هنداوي، ١٩٥٥.

- أنور محمود زناتي، علم التاريخ واتجاهات تفسيره.. اقتراب جديد، مكتبة الانجلو المصرية، ٢٠١٢. مصر.

- جميل موسى النجار، علم التاريخ وفلسفته في فكر ابن خلدون، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ٢٠١٣.

- جاسم سلطان، فلسفة التاريخ الفكر الإستراتيجي في فهم التاريخ، ط٤، مؤسَّسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، ٢٠١٠.

- جوزيف هورس، قيمة التاريخ، ترجمة: نسرين نصر، ط٣، دار منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٦.

- حامد حمزة حمد الدليمي، فلسفة التاريخ والحضارة، دار الصادق للطبع والتوزيع، ٢٠٠٤.

- خالد فؤاد طحطح، في فلسفة التاريخ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٩.

- رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧.

- ريمون آرون، فلسفة التاريخ النقدية.. بحث في

النظرية الألمانيـة للتاريخ، ترجمة: حافظ الجمالي، دمشق، ١٩٩٩.

– عبـد الحليم عويس، الحضارة الإسلامية.. إبداع المـاضي وآفـاق المستقبـل، الصحـوة للنـشر والتوزيع، سوريا، ٢٠١٠.

– عبد الحليم مهورباشـة، فلسفة التاريخ.. مدخل إلى النـماذج التفسيريـة للتاريـخ الإنسـاني، مركـز نـماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٦.

– عبد الرحمن الشيخ، المدخل إلى علم التاريخ، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٤.

– عبـد العليم عبد الرحمن خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥.

– غوستـاف لوبـون، فلسفة التاريـخ، دار المعاصر للطبع والنشر، مصر، ١٩٥٤.

– فيصـل حنبلي، أهمية علم التاريخ [مقالة]، البيان الكويتية، العدد ٤١، ١٩٩٦.

– قيـس حاتم هناي الجنابي، في فلسفة التاريخ، دار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٦.

– كريـم مطـر حمـزة الزبيـدي وحامد عبـد الحمزة العـلي، مدخـل إلى فلسفة التاريـخ، دار الرياحين للنشر والتوزيع، الجمهورية العراقية، ٢٠٢٠.

– مصطفـى النشـار، فلسفة التاريـخ، شركة الأمل للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.

– مصطفـى النشـار، فلسفـة التاريـخ.. نشأتهـا وتطورها من الشرق القديم حتَّى تونبي، نيوبرك للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧.

– مصطفـى حسـن النشـار، فلسفـة التاريـخ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢.

– نجـاة سليـم، مفاتيح علـم التاريـخ، دار زهران للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٢.

– هاري المر بارنز، ، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمـد عبد الرحمـن برج، الهيئة المصريـة العامة للكتاب، مصر، (د.ت).

– هاشـم يحيى الملاح، المفصـل في فلسفة التاريخ.. دراسـة تحليليـة في فلسفـة التاريـخ التأمليـة والنقديـة، المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٥.

الهوامش

(١) أبو زيـد ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العِبر وديـوان المبتـدأ والخبر في أيـام العرب والعجـم والبربر ومَـن عاصرهم مـن ذوي السلطان الأكـبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص١١.

(٢) رأفـت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧، ص٧.

(٣) نجـاة سليـم، مفاتيح علـم التاريـخ، دار زهـران للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٢، ص١٠.

(٤) عبد الرحمن الشيخ، المدخل إلى علم التاريخ، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٤، ص١٩.

(٥) كريـم مطـر حمـزة الزبيـدي وحامـد عبد الحمـزة العلي، مدخـل إلى فلسفـة التاريـخ، دار الرياحـين للنـشر والتوزيع، العراق، ٢٠٢٠، ص٧-٨.

(٦) خالـد فـؤاد طحطـح، في فلسفـة التاريخ، الـدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٩، ص١٠.

(٧) جوزيـف هـورس، قيمـة التاريـخ، ترجمـة: نسين نصر، ط٣، دار منشـورات عويـدات، بـيروت، ١٩٨٦، ص١٢٠-١٢١.

(٨) نجاة سليم، مفاتيح علم التاريخ، ص٣٠.

(٩) قيس حاتم هناي الجنابي، في فلسفة التاريخ، دار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٦، ص٢١-٢٢.

(١٠) مصطفـى حسـن النشـار، فلسفة التاريـخ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢، ص١٠.

(١١) عبد العليم عبد الرحمن خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥، ص٦٣.

(١٢) فيصل حنبلي، أهمية علم التاريخ (مقالة)، البيان الكويتية، العدد ٤١، ١٩٩٦، ص٦٠.

(١٣) أنور محمود زناتي، علم التاريخ واتجاهات تفسيره.. اقتراب جديد، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ٢٠١٢، ص٧٩.

(١٤) أسد رستم، مصطلح التاريخ، مؤسَّسة هنداوي، ١٩٥٥، ص١٠٠-١٠١.

(١٥) جاسم سلطان، فلسفة التاريخ.. الفكر الإستراتيجي في فهم التاريخ، ط٤، مؤسَّسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، ٢٠١٠، ص٢١-٢٢.

(١٦) كريم مطر وحامد العلي، مدخل إلى فلسفة التاريخ، دار الرياحين، بابل، ٢٠١٩، ص٤٣.

(١٧) حامد حمزة حمد الدليمي، فلسفة التاريخ والحضارة، دار الصادق للطبع والتوزيع، ٢٠٠٤، ص٢٠.

(١٨) المرجع نفسه، ص٢١.

(١٩) غوستاف لوبون، فلسفة التاريخ، دار المعاصر للطبع والنشر، مصر، ١٩٥٤، ص١٩.

(٢٠) المرجع نفسه، ص١٩.

(٢١) جاسم سلطان، فلسفة التاريخ، ص٢٢.

(٢٢) المرجع نفسه، ص٢٤.

(٢٣) المرجع نفسه، ص٢٧.

(٢٤) المرجع نفسه، ص٢٢-٢٣.

(٢٥) مصطفى النشار، فلسفة التاريخ، ص٢٤-٢٥.

(٢٦) المرجع نفسه، ص٢٦-٢٧.

(٢٧) كريم مطر حمزة الزبيدي وحامد عبد الحمزة العلي، مدخل إلى فلسفة التاريخ، ص١١.

(٢٨) المرجع نفسه، ص١٥.

(٢٩) مصطفى النشار، فلسفة التاريخ، ص٢٦-٢٧.

(٣٠) عبد الحليم مهورباشة، فلسفة التاريخ.. مدخل إلى النماذج التفسيرية للتاريخ الإنساني، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٦، ص٦٦-٦٧.

(٣١) جميل موسى النجار، علم التاريخ وفلسفته في فكر ابن خلدون، دار ومكتبة عدنان، ٢٠١٣، ص١٢٧.

(٣٢) كريم مطر وحامد العلي، مرجع سابق، ص٣٤.

(٣٣) المرجع نفسه، ص١٢٨.

(٣٤) هاري المر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج، ج١، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، ١٩١٥، ص٢٦٥.

(٣٥) مصطفى النشار، فلسفة التاريخ، ص١٧.

(٣٦) أحمد محمد صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسَّسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٥، ص١٢٣-١٢٦.

(٣٧) هاشم يحيى الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ.. دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية، المجمع العلمي العراقي، ص٢١٠.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٢١١.

(٣٩) هاشم يحيى الملاح، مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٧.

(٤٠) المرجع نفسه، ص٢٣.

(٤١) كريم مطر حمزة الزبيدي وحامد عبد الحمزة العلي، مرجع سابق، ص١٥.

(٤٢) الملاح، مرجع سابق، ص٣٤.

(٤٣) كريم مطر وحامد العلي، مرجع سابق، ص١٦.

(٤٤) المرجع نفسه، ص١٦.

(٤٥) كريم مطر حمزة الزبيدي وحامد عبد الحمزة العلي، مرجع سابق، ص١٩-٢٠.

(٤٦) المرجع نفسه، ص٢٦.

(٤٧) المرجع نفسه، ص٢٢.

(٤٨) هاشم يحيى الملاح، مرجع سابق، ص٤٥.

The First Formations in the Philosophy of History

Prof. Dr. Hamid Abd Al-Hamza Mohammad Ali
University of Babylon / College of Education for the Humanities

Abstract

In the dialectic of the relationship between history and philosophy and the outcome of this interdependence, it can appear to us the difference between the historian and the philosopher of history. The component of a larger event by knowing the cause of this event, whether it was partial, simple or compound, used from the collection of historical material and scrutiny of documents to the stage of interpretation in which the cause of the event is discovered and interpreted.

Therefore, the starting point for the historian is the partial event, while the starting point for the philosopher's reflections is the comprehensive course of events, and this means that the method. The research of the historian is an inductive approach that is predominantly empirical in nature, although empiricism here is not the experience in the natural sciences, while the method for the philosopher of history is the rational approach, where the philosopher works with his reflections to reach the total cause that explains the partial events.

There is another difference between the work of the historian and the work of the philosopher of history. It seems that if we look at the goal that both seek to achieve, the goal of the historian is to record the event and to verify the authenticity of its recording with the greatest degree of objectivity and integrity, while the goal of the philosopher is to interpret the entirety of the events of history and to extract what we can call the mechanisms or general rules according to which human history proceeds, and here We find the subjectivity of the philosopher that emerges from. Through his vision of these interpreted principles or rules, as these principles or rules differ from one philosopher to another according to his general philosophical vision and according to the historical material he contemplates and the extent of this material's abundance.

Therefore, there must be a rational discourse on history that contributes to restoring the scientific prestige of history after it was dominated by fallacies. And the superstitious style, so the philosophy of history appeared to put the last answer to the rationality of history.

Keywords: Philosophy of history, History, Curriculum.